ثنائية " الخير و الشّر" و أبعادها الدلالية في أسطورة " عجوز يناير" القبائلية

The duality of good and evil and its semantic dimensions in the Kabyle myth of "Old lady of Yannayer"

فيروز بن رمضان[1]*

[1] جامعة يحي فارس بالمدية (الجزائر) البريد الإلكتروني **benramdanefairouz@yahoo.fr**

تاريخ الاستلام: 2022/01/23 تاريخ القبول: 2022/03/23 تاريخ النشر: 2022/06/05

الملخص:

تعتبر الأساطير شكلا من أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ومن خلالها عبّر الانسان البدائي عن أفكاره و معتقداته التي آمن بها و اعتقد بوجودها، ومن بين هذه الأساطير، أسطورة " عجوز يناير" التي تتأرجح بين ثنائيات ضدية تقوم على الخير و الشر، لتُمثِّل بُعدا دلاليا لا ينحاز عن كونه الوحدة التي تشمل الإنسان والعالم الذي يعيش فيه.

وسنحاول في هذا المقال، الحديث عن مفهوم الأسطورة و خصائصها، كما سنتحدث على الثنائيات الضدية وفق منظور كلود ليفي شتراوس، و التركيز على ثنائية الخير والشر التي وجدناها في أسطورة "عجوز يناير" القبائلية.

كلمات مفتاحية: الأسطورة، كلود ليفي شتراوس،الثنائيات الضدية، الخير و الشر، أسطورة عجوز يناير

Abstract

Myths are a form of expression in popular literature, through which primitive man expressed his thoughts and beliefs in which he believed and

* المرسل المؤلف: د. فيروز بن رمضان

believed in their existence. It does not deviate from being the unit that includes man and the world in which he lives.

In this article, we will try to talk about the concept of myth and its characteristics, and we will talk about opposite dualities according to Claude Lévi-Strauss' perspective, and focus on the duality of good and evil that we found in the Kabyle myth of "Old lady of Yannayer".

Keywords: myth, Claude Lévi-Strauss opposite dualities, good and evil, the myth of Old lady of Yannayer.

1. مقدمة:

تعبّر الأسطورة في الأدب الشعبي عن الوحدة التي تشمل الإنسان و العالم الذي يعيش فيه، فبواسطتها كان يفسر الظواهر الكونية و تأملاته وتساؤلاته الفلسفية، لأنه أحسّ في أعماقه أن حياته ترتبط بنظام الكون ولا تنفصل عنه، و أنّ جذوره مغروسة في الطبيعة، فمنذ أن فتح عينيه وهو يحاول أن يفسر ظواهر الطبيعة، فاعتمد على فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ما هو كائن من الظواهر الطبيعية كالرعد و البراكين و الصواعق وغيرها، من أجل إيجاد أجوبة مقنعة لتساؤلاته.

وبصرف النظر عن صحة الاعتماد أو عن الرأي العقيدي فيه،" فإن دارس الثقافة الشعبية يرصد هذه المرويات و يوثقها، باعتبارها اعتقادات تتواتر بين أبناء الجماعات الشعبية، وبهذا الاعتبار، يوليها الدارسون عنايتهم، ويقومون ببحثها لتبيين مظاهر هذه المعتقدات ودلالاتها و وظائفها بالنسبة لأبناء الجماعة الشعبية الذين يتواترونها توطئة لدرسها و تحليلها و وضعها في سياقها في مضاهاة مع الظواهر المماثلة لدى الجماعات الأخرى" (حواس، 2013، ص 321)، ونفس الكلام سينطبق على أسطورة " عجوز يناير" التي بين أيدينا، و هي من مخلفات الأساطير القديمة التي تحدثت عن الخلق و التكوين و تصوّر العالم، وساهمت في تفسير انقلاب بعض الخصوصيات للحيوانات و الطبيعة، باعتبارها الأم الأولى للعالم المتأرجحة بين أفعالها الخيّرة و الشريرة في هذا الكون، ومن خلال تصرفات هذه الأم الأولى، أُلبست العجوز في أسطورة يناير بعضا من صفاتها، و تصرفاتها، وهو الحدث الذي تناقلته العديد من الروايات الشفوية من أفواه عجائز و شيوخ منطقة القبائل.

جمع الأنثروبولوجي الألماني " ليو فروبينيوس Leo Frobenius" مجموعة من الأساطير الإفريقية، التي تحدثت عن خلق الكون و تصوّر العالم، باللغة الألمانية في كتاب أسماه " أطلونتيس: حكايات و أشعار شعبية أفريقية Atlantis :Volmsmarchen und Vilksdichstungen Afrikas"، " وقد صدر الكتاب بين سنوات 1921-1925، بألمانيا، وبين دفّتي هذا الكتاب، خصّص سلسلة للحديث فيها عن الأساطير القبائلية، تحت مُسمّى: "الحكايات القبائلية Volksmarchen der Kabylen "، وفيها تحدث عن موت الأم الأولى للكون وموجات صقيع يناير La mort de la première Mère du monde et les gelées de mois de janvier"، وهو النص الذي استمدّت منه " عجوز يناير ثامغارث ن يناير" بعضا من صفات الأم الأولى للعالم و تصرفاتها، خاصة فيما تعلق بأفعالها الخيّرة و الشريرة.

وعليه، يحاول هذا المقال الإجابة عن الإشكالية التالية: ما العلاقة التي تربط نصوص كتاب " ليو فروبينيوس Leo Frobenius" بنص أسطورة " عجوز يناير" ؟ و هل احتوت هذه الأخيرة على ثنائية " الخير والشر" في متنها ؟

و للإجابة عن هذه الإشكالية، توقفنا في هذا المقال قليلا عند مفهوم الأسطورة، و موقعها في فكر "كلود ليفي شترواس Claude Lévi-Strauss"، و تحليلها من منظوره، ثم عرجنا بالحديث عن الثنائيات الضدية عنده، لنختم المقال بدراسة تطبيقية لنص الأسطورة و دراسة " الأفعال الخيّرة و الشريرة فيها.

2.مفهوم الأسطورة:

الأساطير في معناها اللغوي الشائع، أو الثقافي الدارج، تعني الأباطيل و الأكاذيب و الخرافات، وكل ما يناقض الواقع، أو بالأحرى ما ليس له وجود في الواقع، أما عند المتخصصين، فإنها" عقيدة لها طقوسها و شعائرها الدينية، و وظائفها الأخلاقية والاجتماعية و المعرفية عند الإنسان البدائي، و تعكس مجمل تراثه الثقافي الذي هو -آنذاك- مزيج من المعتقدات الدينية و المعارف الأولية و الفنون البدائية إبان المرحلة الأسطورية للمجتمعات القديمة ، و أنها بهذا المعنى نظام فكري متكامل، استوعب -آنذاك- قلق

الانسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، و الأحاجي التي يتحداه بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه" (النجار، 2003، ص 34).

فالأسطورة من هذه الناحية، تمثل أولى مراحل التفكير الفلسفي للإنسان، وكانت جوهر ثقافته، و أداته في التفسير و التعليل، و أسلوبه في الكشف و المعرفة، يراها حكايات حقيقية ومقدسة، ولا يخالجه شك في حدوثها، ويؤمن بها و بدورها وتأثيرها الفعال في وجوده، كونها تبعث له الحياة في واقع أصلي، و تلبّي له حاجة دينية و ثقافية عميقة، كما تستجيب إلى طموحات أخلاقية، فيها دعوة إلى الالتزام بالواجبات، والامتثال لأوامر على المستوى الاجتماعي، وفيها تعليمات خاصة بالحياة العملية.

و الأسطورة من منظور" ميرسيا إلياد Mircea Eliade" تروي " تاريخا مقدسا، وتخبر عن حدث وقع في الزمن البدئي، الأسطوري، وهو زمن البدايات العجيب، وتذكر كيف ظهرت حقيقة ما، أو كيف خرج واقع ما إلى حيّز الوجود، بفضل أعمال باهرة قامت بها كائنات حارقة عظيمة" (خياطة، 1991، ص21-22)، ومعنى ذلك أنها تنطوي على خبرة دينية حقيقية مكتملة في طقوسها وعاداتها وتقاليدها.

و يراها آخرون بأنها " تحاول أن تفسّر لنا علوم عصر ما قبل العلوم" (رشدي، 1961، ص41)، بالحديث عن الخلق و التكوين، وعلة الظواهر الطبيعية، وتفسير الأسرار الخافية وراء صفات الحيوان.

و إذا كان المجال هنا لا يتّسع للوقوف عند هذه الآراء الجمة التي رأت مفهوم الأسطورة بمفهوم مغاير و وجهات نظر مختلفة، فإنه لا يتّسع كذلك لعرض التعريفات المتعددة للأساطير و تنوعها و تعدد وظائفها، وما يهمنا هو أحد المفاهيم الذي يخدم لب الموضوع، ذاك الذي يقول عن الأسطورة، أنها تروي قصة وجود ما، أو بالأحرى " سرد لعملية خلق حدثت في التاريخ البدئي أو عصر التكوين الذي هو دائما، تاريخ إلهي مقدس، لأنه من صنع أو إنجاز كائنات تتمتع بقدرات عليا و عُرفت بأعمالها الخارقة" (النجار، 2003، ص 38).

3. موقع الأسطورة في فكر "كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss":

يحاول "كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss " تحديد علاقة الأسطورة بالعلم، وعلاقتها بالتاريخ، و علاقاتها بالموسيقى واللغة، وموقعها في سياق النسق الكلي للفكر الإنساني، فهي في نظره، "تشير دائما إلى وقائع يزعم أنها حدثت منذ زمن بعيد، لكن ما يعطي الأسطورة قيمتها العملية، هو أن النمط الخاص الذي تصفه، يكون غير ذي زمن محدد، فهي تفسر الحاضر و الماضي وكذلك المستقبل" (شاكر، 2016، ص13).

و تشتمل الأسطورة – في نظره- على الزمن القابل للإعادة، و أيضا على الزمن غير القابل للإعادة، و على خصائص التزامن و التتابع في لغتها، ويمكن تمثيل زمن الأسطورة كما يلي: (شاكر، 2016، ص 14)

- الزمن القابل للإعادة = الزمن البنيوي= اللغة= التزامن.
- الزمن غير قابل للإعادة= الزمن الإحصائي= الكلام= التتابع.

فمن خلال هذا التمثيل، يمكن تشبيه الأسطورة عند " ليفي شتراوس Lévi-Strauss " بالمدونة الموسيقية عندما تتم قراءتها بشكل متأنٍ، "من خلال التتابع (من الشمال إلى اليمين و صفحة وراء الأخرى) ومن خلال التزامن (من أعلى إلى أسفل)" (شاكر، 2016، ص 14)، وبالتالي يتم تنشيطها عند مستوى مرتفع بشكل خاص تتابع فيه المعاني بشكل يجعل الخلفية اللغوية لها في حالة حركة دائمة.

4. تحليل الأسطورة من منظور "كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss":

يتجاوز تحليل الأسطورة تحليل مضمونها وحدودها، حسب " ليفي شتراوس Lévi-Strauss "، فهو يركز على الكشف عن العلاقات التي توجد بين كل الأساطير، وقد أضحت هذه العلاقات موضوعات أساسية في تحليله البنيوي الذي يستهدف الكشف عن الأبنية الموحدة للأساطير، فهو يرى" أن هذه الأبنية الموحّدة، إنما تتجلى خلال عملية تحليل الأسطورة، وبالكيفية التي ينبثق بها الفكر اللاواعي في الوعي، من خلال عملية التحليل النفسي المعروفة لدى فرويد، ولذلك يغدو الكشف عن هذه الأبنية أيضا نوعا من أنواع التحليل النفسي الثقافي" (شاكر، 2016، ص 15).

جمع ليفي شتراوس Lévi-Strauss في كتابه " أسطوريات" حوالي 528 قصة من أماكن متباعدة من أمريكا و المناطق المدارية، ورغم أن هذه الأساطير تنتمي إلى أنساق أسطورية متعددة، فإنها أنساق مترابطة، بل و يمكن اعتبارها جسدا واحدا. والروابط الداخلية بين الأساطير ذات أهمية كبيرة، إنها علاقات منطقية تم تكوينها بين وحدات مكونة لقصص مختلفة، وقد استخدم "ليفي شترواس Lévi-Strauss بعض المصطلحات لوصف هذه العلاقات بين الوحدات الأسطورية مثل: التماثل، والتضاد، والتكافؤ و الوحدة و التطابق و التشكل وغيرها.

ويعتمد ليفي شتراوس Lévi-Strauss في تحليله للأساطير على اكتشاف العلاقات التشاكلية داخل الأسطورة الواحدة، و هذه الأخيرة تعمل من خلال أنظمة ثنائية متعارضة، والتعارض " هي المادة المباشرة للواقع الاجتماعي و العقلي والتي يجب أن تكون نقطة البداية لأية محاولة للتفسير، حيث يتم تنظيمها في أزواج تسمح بظهور الأبنية التبادلية بينها، ويعدّ فهم العلاقات المتقابلة أو المتعارضة عند ليفي شتراوس Lévi-Strauss نشاطا عقليا لا شعوريا" (شاكر، 2016، ص 24).

5.الثنائيات الضدية عند ليفي شتراوس Lévi-Strauss:

لقد أسهمت حقول معرفية متعددة في إثراء علم الأساطير المقارن، حيث استخدم " فلاديمير بروب Vladimir Propp" المنحى البنيوي من أجل دراسة البنيات الأساسية الموجودة وراء الأساطير المختلفة، فاقترح أن الحكايات الخرافية ذات بنية و حبكة مشتركة، وذلك لأنه، وخلالها، تحدُث وقائع معينة من خلال نظام، أو نمط معين قابل للتنبؤ به، وعلى العكس من ذلك، قام ليفي شتراوس Lévi-Strauss بدراسة الأساطير في ضوء تلك العلاقات المجردة الموجودة بين عناصرها بدلا من دراسة النظام الخاص بحبكتها القصصية، على الرغم من أنه لم يتجاهل أو يتغافل عن هذا الجانب.

ومع التطور الذي شهدته الدراسات اللسانية، تجلّت أهمية البعد التقابلي في تحديد الدلالة و دراسة السمات اللغوية، "حيث رأى "فرديناند دو سوسور Ferdinand de Saussure "، أن تحديد أي علامة لغوية لا يتم إلا بمعرفة ما يقابلها في نسق اللغة، فالعلامة اللغوية وغير اللغوية تستدعي بالضرورة طرفا ثانيا يكون موازيا لها، وقد افترض وجود علاقة جدلية داخل النسق بين الدال (الصوت السمعي) و

المدلول (الصورة الذهنية)، وأكد مفهوم التعارضات الثنائية في اللغة، وهذا ما ساعد ليفي شتراوس Lévi-Strauss على التوسط بين العناصر المتضادة مثل: ساخن /بارد، أرض/سماء، ذكر/أنثى، و قديم/وجديد" (عزام، 2003، ص 24).

وليست هذه الثنائيات ميزة ميزت الأسطورة عن باقي الأشكال التعبيرية، بل كل الفنون الأدبية لها مجموعة من الثنائيات الخاصة بها، و المقصود بالثنائيات، التضاد في المعاني المكونة لبنية النص من حيث مسارها السردي العميق، كأن نقول مثلا: الخير / والشر، فهي ثنائية ضدية من حيث المعنى لا من حيث الشكل، و لا تخرج عن كونها ثقافية أو اجتماعية أو فكرية، في أبعادها الدلالية كما جسدها النص.

و المقصود عند ليفي شتراوس Lévi-Strauss، من تحليله للأسطورة وفق هذه المتضادات، هو استخراج الثنائيات الموجودة بها، و التي يجمعها اشتقاق واحد من جهة، كما يقصد بها من جهة ثانية، مجموعة الألفاظ المتجانسة في المعنى، و إن ظهرت متعارضة، وهي مجموعة من التراكيب ذات دلالات مترابطة، لأنه "يعتقد أنّ عناصر أية أسطورة قد تكون قابلة لأن يتم تنظيمها في ضوء بعض الثنائيات الضدية (النّيئ في مقابل المطبوخ، أو الطبيعة في مقابل الثقافة)، و أنّ هدف الأسطورة الموجّه لها، إنّما يتمثل في أنها تقوم بالوساطة بين هذه وبين هذه الثنائيات التي تبدو متعارضة، ومن ثمّ، فإنها تقوم بحل أو تصريف بعض التوترات أو التناقضات الأساسية الموجودة في الحياة أو الثقافة الإنسانية" (شاكر، 2016، ص 29).

6.أسطورة " عجوز يناير" ثامْغارْثْ نْ ينّايرْ:

تنتشر أحداث هذه الأسطورة المتوارثة عبر الأجيال، في ربوع بلاد الأمازيغ عامة، مع اختلاف في متنها الأسطوري، وهي من أكثر الأساطير التي تناولت قضية التحول في الصفات و الطباع، ويتعلّق الأمر بالعجوز التي قادت قطيعها للرعي بقمم الجبال، فسخرت من شهر يناير لأنه كان لطيف الجو في أواخره، ولم يكن قاسيا شديد البرودة و الثلوج لا تكف عن الهطول طوال أيامه، فاستشاط غضبا من ألفاظها، فقرّر استلاف يومين من شهر فورار(فيفري)، لمعاقبة العجوز صاحبة اللسان السليط، فأعاره شهر فورار أسبوعا كاملا، فقضى على تلك العجوز في قمة الجبل هي و قطيعها.

وسنعتمد في هذا المقال على رواية الأنثروبولوجي الألماني " ليو فروبينيوس Leo Frobenius ، الذي تحدث عن موت الأم الأولى للعالم ومتجمدات شهر يناير La mort de la première Mère du monde et les gelées de mois de janvier"، وهو النص الذي انتشر في ربوع بلاد القبائل بروايات مختلفة.

يقول ليو فروبينيوس Leo Frobenius في أسطورة: موت الأم الأولى للعالم ومتجمّدات شهر يناير:

" في البداية، كان كل شيء يتكلم و ينطق، النبات و الأحجار، الأرض و الماء، وكان الإنسان يعي لغة هذه الأشياء و لغة سائر الحيوانات الأخرى، وكان البشر يتواصلون بلغة واحدة يفهمها الجميع، ولكنه ومنذ أن أقدمت الأم الأولى للعالم بفعلتها الشنيعة، حيث أحدثت ضرطا على كومة من الأعواد أصيبت الأشجار و الأحجار والماء و سائر المخلوقات بالبكم، و أصبح البشر لا يفهمون لغة الحيوانات، وبل لا يفهمون لغة بعضهم البعض.

أقدمت الأم الأولى للعالم على كل المصائب التي حلّت على سطح البسيطة، إذ تسبّبت في إيذاء البشر، حيث ألحقت العلّة للضرير و البكم والصّم والغباء والحماقة والجنون لبني آدم. كما أنّ الأم الأولى للعالم كانت السبب في حدوث الفراق و الشقاق بين البشر، لأنها ساحرة عظيمة أرادت أن تتحكّم في كل العالم. والآن سأقص عليكم كيف كانت نهاية هذه العجوز الشريرة، بعدما كانت السبب في كل العواقب الوخيمة التي حلت بالبشر:

كانت الأم الأولى للعالم، تمتلك مزرعة بسفوح جبال جرجرة، ليس بعيدا عن قرية "آث بوغرذان"، أين توجد قصور الماء التي ترتفع إلى أعالي السماء، وكانت العجوز ترعى فطيعها من الأبقار والماعز بسفوح جبال جرجرة، وفي يوم من الأيام، وبحلول نهاية شهر يناير الذي كان شهرا لطيفا على غير عادته، كانت وسط قطيعها منشغلة بخض اللبن، وكان الثلج قد تساقط منذ ثلاثة أيام، فسعل جذي بالقرب منها.

لاحظت سعال الجدي وابتسمت تهزأ بيناير الذي كان لطيفا، وخاطبت الجذي قائلة:

لا تخف، فعمي يناير قد فات، ولا يمكن له أن يُلحق بك الأذى !

ولما سمع يناير (جانفي)كلام العجوز غضب منها واعتبره شتيمة، وعلى الفور انطلق صوب فورار(فيفري) وقال له: أرجوك أيها الأخ، أعرني الليل و النهار لكي أقضي على تلك العجوز الوقحة، التي تمادت كثيرا، و أخذت تهزأ بي قائلة إنّني لم أعد أستطيع أن ألحق بها الأذى !. فوافق فورار على الفور قائلا: خذ بدل الليل و النهار سبعة أيام وسبع ليال وعاقبها عقابا قاسيا !

وبعدما اقترض يناير سبعة أيام و سبع ليال من شهر فبراير، توجه صوب العجوز و خاطبها قائلا: لن أنته بعد أيتها العجوز الطيبة ! أيتها المسكينة ! و إذا لم تكف، يمكنني أن أستزيد من فورار الغالي ! وبعد فترة بدأت الثلوج و البرد بالتساقط، وحلت موجة من الصقيع و البرد القارص، واحتجبت الشمس وراء كثبان السحاب الكثيفة، وحلّ الظلام في عزّ النهار حتى أنه لا يمكنك أن تفرق بين الليل و النهار. وانطوت الأم الأولى للعالم على نفسها، وهي تمسك بالحبل الصغير الذي كان يشد شكوة اللبن، وبقيت صامدة و لم تبد أية حركة، كما فقدت دوابها القدرة على الحركة بسبب البرد الشديد.

وفي مدة أربعة أيام وثلاثة ليال، تحولت الأم الأولى للعالم و قطيعها إلى حجارة عملاقة بسبب الصقيع والثلوج والبرد، وتجمدوا في نفس الوضعية التي كانوا عليها حينما فاجأتهم العاصفة الهوجاء، ولا تزال آثارهم موجودة بسفح الجرف الذي يقع ناحية "ثِيبُّورا ألعُنْصُرْ". ومنذ ذلك الوقت، صار شهر يناير الشهر الأكثر ترويعا للعجائز في السنة، واللائي يخفن منه كثيرا، وحلال هذه الفترة تسقط الكثير منهن طريحات الفراش، و الكثير منهن يفارقن الحياة" (حويلي، 2020، ص ص 51-52-53).

7.ثنائية الخير / الشر في "أسطورة عجوز يناير ثامغارث ن ينّاير":

طالت "عجوز يناير" تحوّلات فيزيولوجية وتشويهات جسدية، لتتحجّر وتكون عبرة لسواها من العجائز اللائي يتمادين ويتحدين الطّبيعة، ففي أغلب المرويات الشفوية لأسطورة "عجوز يناير"، بما فيها نص الأنثروبولوجي ليو فروبينيوس Leo Frobenius ، نجد تطاول العجوز على شهر يناير بالشطط الكلامي، ومن خلاله تحدّت "يناير" الذي تجاوز الحدّ الزّمني للبرد الشديد، بكل وقاحة و قالت مخاطبة الجدي: لا تخف، فعمي يناير قد فات، ولا يمكن له أن يُلحق بك الأذى" (حويلي،2020، ص 52) ! فالعجوز قد أصدرت هذا الكلام دون أن تعي أنّها سوف تنال حتفها قريبا.

و المغزى من جلّ الأساطير والمرويات الشفوية الذي نستخلصه: أنّ اليوم الذي ماتت فيه العجوز التي استخفت بقدرات يناير، يسمّى في الكثير من مناطق بلاد القبائل "أسْ ن-لْموثْ ن-تَمْغارْثْ-" أي: "يوم موت العجوز" ليكون هذا اليوم في مخيال الذاكرة الجماعية رمزا للعقاب الذي قد يحلّ على كل من تسول له نفسه الاستخفاف بالطّبيعة والاستهزاء بها، هذا ويمثّل شهر "يناير" عند أهالي منطقة القبائل بداية التقويم الفلاحي وهي الفترة الفاصلة ما بين نمطين شمسيين وهما الانقلاب الشمسي أو الصيفي والاعتدال الرّبيعي أو الخريفي الموافقة للشروع في جملة الطقوس المتعلّقة بالأشغال الفلاحية والزّراعية بالمنطقة ولا تزال هذه الرزنامة سارية المفعول إلى أيّامنا هذه. فالتقويم القبائلي (وهو نفسه لدى الأمازيغ عبر أصقاع شمال أفريقيا) بات نفسه طوال الأزمنة والأعوام وعادة ما تقوم بالطّقوس عجوز تدرك أمور الاحتفال كما تجيد العد التقويمي والتأريخي لجدول التعداد الفصلي والشهري (حويلي، 2016، ص 242).

إنّ شخصية العجوز الأولى أو "ثامْغَرْثْ تَمْزَوَرُثْ" أو شخصية "يَمّاسْ ن-دُونيثْ" في نصوص " ليو فروبينيوس Leo Frobenius، هي أم ولدت العالم بأسره أو على الأقل خلقت معالمه، ولكنّها وحينما تقدّمت في السن وأصبحت تكبر مع مرور الأزمان والأطوار تحوّلت إلى عجوز شريرة تدعى: "أسْتُوتْ"، تسبّب الأذى لمن حولها، كما تسبّبت أيضا في تغيير معالم الكون والطّبيعة نحو ما هو سلبي، وهو الأمر الذي أدّى إلى نتائج وخيمة انعكست على البشرية وبالتالي على أهالي منطقة القبائل.

و يمكن تصنيف أفعال هذه العجوز إلى أفعال خلق إيجابية تستفيد البشرية من فضائلها ومنافعها، وأفعال سلبية أدّت إلى ظهور عواقب وخيمة على الوجود الإنساني. ويحيلنا الكلام على ثنائية تنطوي عليها العجوز أو "ثامْغَرْثْ تَمْزَوَرُثْ"، هي ثنائية " الخير/ الشر"، ويمكن لنا أن نعبّر عنها كما يلي:

●الحالة الأولى: امرأة في مقتبل العمر/متوسّطة العمر + طيّبة + تقوم بأعمال خيرة تفيد الجماعة + تشارك في انتظام الكون.

●الحالة الثانية: امرأة متقدّمة في العمر/أصبحت عجوزا + شريرة + ساحرة + تقوم بأعمال تؤذي الجماعة + تشارك في زعزعة الكون.

وإذا ما حاولنا أن نصنّف الأعمال التي قامت بها العجوز الأولى أو "ثامْغَرْتْ ثَمْزَوَرُتْ" أو الأم الأولى للعالم (يَمّاسْ ن-دُونيثْ) كما أوردها ليو فروبينيوس Leo Frobenius نجدها مترددة كما يلي:

1.7.الأعمال الخيِّرة التي قامت بها الأم الأولى للعالم:

أوّلا يجب أن نذكر إنّه في هذا التصنيف سوف نعتمد على النّصوص التي وردت في كتاب ليو فروبينيوس Leo Frobenius ، والمتعلقة بالأم الأولى للعالم (حويلي، 2020، ص 48):

تبدو هذه العجوز أو المرأة حكيمة جدّا وتدرك الكثير من الأمور، لذا فكلّما وقعت إحدى النّساء في مشكلة ما إلاّ وتطلب العون والمساعدة من العجوز، و هذا ما جاء أيضا في "أصل الثعبان" (حويلي، 2020، ص 48)، حينما ولدت أم رضيعين فكان أحدهما قبيح المنظر ولا يمتلك أرجلا يتّكئ عليها أو يقف عليهما، فقامت الأم لتستشير العجوز والتي أجابتها على الفور قائلة: "لا عليك!" فأحضرت الماء وسكبته على "أزْرَمْ" وخاطبته قائلة: "أيّها المخلوق العديم القوائم ازحف!؟ فزحف "أزْرَمْ" على بطنه، وخرج من البيت ولجأ إلى حائط البيت وبقي فيه، وحَنَّ أخوه العادي إليه وأخذ يبكي على فراقه، فأرجعت الأم "أزْرَمْ" إلى كنف البيت بعد ما وجدته، ولكنّه سرعان ما خرج وفرَّ مرّة أخرى صوب الحائط ليعيش هناك إلى الأبد. أسهمت العجوز الأولى أو العجوز الحكيم –إذن- في عملية خلق الثعبان –ولو بطريقة غير مباشرة- وأدركت بسرعة فائقة ما يجب فعله حينما رأت هذا المخلوق العديم القوائم.

ومن الأفعال الخلاّقة الخيّرة التي قامت بها العجوز الأولى، والتي استفاد منها البشر نجد مساعيها في إحلال تعاقب اللّيل والنهار، وذلك حينما قدّمت الكرتين للفتاتين الشقيقتين وأمرتهما بأن تأدبا على فكّهما ففعلت الأولى ما قالته العجوز وأخذت تفكّ الكبة البيضاء حتى برزت معالم الفجر بالبزوغ، بينما قامت أختها وأخذت الكبة السوداء وقامت بفكّها حتى بدأ الظّلام ينزل بسواده الحالك، وهكذا أخذ اللّيل والنهار يتعاقبان بالظهور واحدا تلوى الآخر، فكان الأول (النّهار) للعمل والمجاهدة والمثابرة، وكان الثاني (اللّيل) للنوم والاستراحة (حويلي، 2020، ص 97).

كما أنّه اكتشفت الطّريقة المثلى لإشعال النّار لتعلّم غيرها بطريقة الحصول عليها في سبيل طهي الطّعام، حيث كان الإنسان القبائلي فيما مضى يتناول الطّعام وهو نيئ، ولكنّه وبحنكة العجوز الحكيم أصبح يتناول الطعام الناضج في بيته، وهذا حينما اصطحب كل واحد من أهالي المنطقة حطبا من النار المشتعلة ويوقّدها في موقد بيته (حويلي، 2020، ص 57).

كما خلقت الأم الأولى للعالم (يمّاسْ ن–دُونيثْ) مجموعة من الحيوانات استفاد منها الإنسان القبائلي أيّما استفادة، كالأغنام بلونيها الأسود والأبيض والتي صنعتها من دقيق القمح الذي طحنته ومزجته بالماء. كما أنّها المسؤولة –ولو بطريقة غير مباشرة– في ظهور القرد والحجلة وذلك حينما صنعت وعدة وتصدّقت بها إلى جامع القرية ليتناولها النّاس، كما أنّها المسؤولة أيضا عن مجموعة من التحوّلات التي طالت بعض الحيوانات والتي تحوّلت فيما بعد (حويلي، 2020، ص 27).

كما أورد " ليو فروبينيوس Leo Frobenius مجموعة من الأعمال التي قامت بها الأم الأولى للعالم (يمّاس ن–دُونِيثْ)، خاصة تلك التي تتعلّق بإعادة النّظام للكون وخلق مجموعة من الظواهر، فلقد خلقت السحب وهذا بفعل الفقاعات المتطايرة من الماء وكذا النّجوم من أسنان المنجل التي أصبحت تتلألأ في علياء السّماء، وأصبحت صفحة الماء اللامعة المتواجدة داخل الصحن الخشبي الشمس وما حولها أصبح بمثابة رقعة السّماء وبذلك أصبح الوعاء الخشبي بمثابة مرآة للعالم والكون (حويلي، 2020، ص 42).

هكذا –إذن– شاركت العجوز الأولى (ثَامْغَرْثْ ثَمْزَوَرُثْ) التي أوردناها في نص الأم الأولى للعالم (يمّاسْ ن–دُونِيثْ) التي ذكرها " ليو فروبينيوس Leo Frobenius في صنع معالم هذا الكون وهذا العالم بسبب ما أقدمت عليه من أفعال خلاقة وأسهمت في تأثير مجرى الخلق وتحويره.

2.7. الأعمال الشرّيرة التي قامت بها الأم الأولى للعالم:

ولم تكتف العجوز الأولى (ثَامْغَرْتْ ثَمَزْوَرُتْ) أو الأم الأولى للعالم (يَمَّاسْ ن-دُونيثْ) بأفعالها وأعمالها الخيرة والخلاقة فقط، بل أقدمت أيضا على مجموعة من الأعمال الشريرة والمدمّرة سواءٌ أكان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويمكن لنا أن نحدّد هذه الأعمال كما يلي:

تسبّبت الأم الأولى للعالم (يَمَّاسْ ن-دُونيثْ) بظهور أوّل كسوف على سطح الأرض، وذلك حينما أقدمت على إسقاط الشمس داخل صحن خشبي كبير، إذ أحدثت صيحة عالية وفجأة حلّ الظّلام في عزّ النهار ولكي يعود النور إلى العالم، كان على البشر أن يضحّوا بأحد أبنائهم زلفة، ويؤكد أهل منطقة القبائل أنه ثمة عجائز كثيرات يمتلكن القدرة على إسقاط الشمس وحتى القمر في سبيل ممارسات سحرية، وكان عليهن أن يقدمن أحد أولادهن كقربان لكي يعود النور إلى الأرض من جديد (حويلي، 2020، ص 40).

كما أنّ العجوز (فاطمة بنت النبي) كانت السبب في ظهور المنية على سطح الأرض حينما عرض عليها الخالق الخيار بين موت ابن ضرتها أو نومه ففضّلت الموت على أن يحيى، فعاقبها الإله وسلّط الموت على ابنها وعلى البشر أجمعين (حويلي، 2020، ص 43). وهو الأمر الذي أشارت إليه الباحثة "تسعديت ياسين" التي تقول في إحدى دراساتها: "إذا كانت الميثولوجيا تنسب أمومية الحياة للمرأة، فإنها تنسب لها أيضا أمومية الموت، فالطّابع الاستثناري والجائر للمرأة هو الذي يشكّل أصل الموت" (حويلي، 2016، ص 247)

ولعلّ أكبر الأعمال المدمّرة التي تسبّبت بها العجوز هو الاضطراب الذي حدث للطّبيعة بأكملها، وهذا بسبب تسرّعها، حيث أرادت جمع الحطب والعودة إلى المنزل لأن صهرها كان قد وصل إلى البيت وكان بانتظارها (حويلي، 2020، ص 54)، وهو الأمر الذي استعرضه "إبوزيدن" في دراسة له، ويقول: "كانت الأرض وكل ما عليها من أشياء تنطق وتتكلّم، ولكن بسبب أحداث مكدّرة وقعت للعجوز وأصابتها شراهة كبيرة وهو الأمر الذي أدّى إلى تقلبات حدثت في بطنها، وفي الزمن البدئي كانت النّساء يجمعن الحطب في شكل حزمة، ثم يقمن بامتطائها لتصطحبهن إلى البيت، وحينما أقدمت العجوز على

امتطائها بسرعة ضرطت عليها ذلك لأنّها تناولت مقدارا كبيرا من الفول، الأمر الذي نجم عنه تحوّل مجرى الحياة إذ أصبح كل شيء يتوقّف على الحركة والكلام" (حويلي، 2016، ص 248)، وقد تسببت العجوز في تغيير ملامح الطّبيعية بسبب عمل شنيع، وهو الضرط الذي يعدّ حدثا مستقبحا ومستهجنا عند أهالي منطقة القبائل، إذ يُنعت صاحب الضرط بكل المواصفات القبيحة (حويلي، 2020، ص 51).

ويمكن لنا أن نستنتج: أنّ الضرط الذي تسبّبت به الأم الأولى للعالم (يَمّاسْ ن-دُونيثْ) على حزمة الأخشاب والأعواد التي جمعتها من الغابة، هو السبب الذي عجّل بانقلاب الأوضاع وتدني الحياة، وسقوط مرتبة الأم الأولى إلى عجوز شريرة تسمّى: "أسْتُوتْ"، فالضرط من السلوكيات المستهجنة، ويعتبر هزءً بالأفعال الإنتاجية كونه قد غيّر من النّظام الكوني الذي بات مضطربا من فعلة العجوز الشنيعة.

8.خاتمة:

إنّ الأساطير والمرويات الشفوية التي استجمعها الأنتروبولوجي الألماني " ليو فروبينيوس Leo Frobenius" من الأساطير الإفريقية، التي تحدثت عن خلق الكون و تصوّر العالم، و خصّ منها أساطير منطقة القبائل، تمكّن القارئ من فهم جزئي على الأقل لطبيعة الإنسان القبائلي ومجتمعه وبنيته الفكرية ومنظومته أيضا، لذا فالدّراسة التي قمنا بانجازها وتحليلنا لمضمون أسطورة عجوز يناير، تهدف إلى فهم الدّلالات والرّموز الموظّفة والمتواترة التي تُختزن في طياتها، و خاصة تلك المرويات الشفوية التي لم نستطع إدراجها في المتن حتى لا تطول هذه الدراسة، ويمكن للقارئ الرجوع إلى بعضها من خلال كتاب أساطير قبائلية في خلق الكون و تصوّر العالم للدكتور نبيل حويلي.

إنّ الأسطورة مصطلح غير واضح تماما، لأنّه متعدّد الدّلالات، و يتغير معناه من باحث إلى باحثٍ آخر، وكذا من اختصاص إلى اختصاص آخر، ذلك أنّ كلّ العلوم الإنسانية تستثمر مصطلح الأسطورة، وسائر الإيديولوجيات توظّفه.

إنّ الثقافة القبائلية لها تقاليد أدبية شفوية عريقة، شهدت ولا تزال تشهد خصوبة غير معهودة في مجال الحكايات وسائر المرويات بما في ذلك الأساطير، وكلها تهدف إلى إيصال معنى خاص مبثوث في ثنايا النص، الأمر الذي يجعل القارئ يستشفه من سياق النص و أنساقه.

9. قائمة المراجع:

1.حواس، عبد الحميد (2013)، أوراق ثانية في الثقافة الشعبية، المركز المصري للثقافة و الفنون، القاهرة.

2.النجار، محمد رجب(2003)، من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، الشركة الدولية للطباعة، الجزء الأول.

3.إلياد، ميرسي، تر: خياطة، نهاد (1991)، مظاهر الأسطورة، دار كنعان للدراسات و النشر، ط 01، دمشق.

4.صالح، رشدي(1961)، الفنون الشعبية، مطبعة دار القلم، القاهرة.

5.عبد الحميد، شاكر (2016)، الأسطورة و المعنى، كلود ليفي شتراوس، إصدارات معهد الشارقة للتراث، الإمارات العربية المتحدة.

6.عزام، محمد(2003)، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسات في نقد النقد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، الطبعة 1، دمشق.

7.حويلي، نبيل (2020)، أساطير قبائلية في خلق الكون و تصوّر العالم، دار أمل للطباعة و النشر و التوزيع، تيزي وزو، الجزائر.

8.حويلي، نبيل،(2016)، منظمة الفكر الأسطوري في منطقة القبائل، دراسة انتروبولوجية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة مواود معمري، تيزي وزو، الجزائر.